نظرة في النظرات

أخرج هذا الكتاب للناس في هذا العهد والأمة في دور دائر بين القديم والحديث يدفعها الأول إلى البقاء أو الريث من خطواتها ، ويرده بحكم الطبع أو التطبع ، ويضطرها الثاني إلى التجرد مما يشد عقالها من العادات والتقاليد العتيقة التي أملى عليها الدهر والأخذ بالجديد المفيد المنطبق على حاجات مصر اليوم .

وها نحن أولاء نرى بعض علماء الدين في مصر والشام والعراق والحجاز واليمن من يتساءلون عما إذا كان تعلم العلوم المادية الطبيعية والتوفر على دراستها حراماً أو حلالاً بينا نرى بعض المفكرين من الباحثين الغلاة يسيرون في أولئك حرباً عواناً تدير رحاها الأقلام مصرحين أنهم لا يعترفون بسوى القوة والمادة اللتين هما من مظاهر الطبيعة ويضربون بكل ما عرض لخاطرهم إن لم يكن من العلوم المادية الطبيعية أو متطفلاً على نواميسها الصحيحة أو موصلاً إليها عرض الحائط فريق يبالغ في إعظام الخيال ويغالي في البحث فيما وراء المادة وفريق لا يعرف غير الحقيقة المادية مذهباً .

الأوان هذا النزاع الغريب لم يكن مقصوراً على العلم فقط بل تناول عدة شؤون الحياة وفروع الشئون الأخرى فكان للأدب النصيب الأوفر منه فما زلنا ولا نزال نرى بعضهم لا يرى للشعر من المكانة العالية إلا إذا كان قائله كانيا زهير وامرئ القيس من مستوى والقالب الغريب ويحسبون أن الكلام الغريب هو ملاك سبعة « ريحانة الأدب » وأشباهها غير مسترشدين بما فيها من الكتب المعتبرة « نهج البلاغة » و « الدرة اليتيمة » و « كليلة ودمنة » وما جرى على أسلوبها من أساليب أئمة الشعراء المتقدمين كالشريف الرضي والمتنبي والمعري وغيرهم من المتأخرين من عدولهم إلى التراكيب الغريبة الفصيحة الأفكار الغريبة الصحيحة كالأسلوب لا يعدونها شيئاً مذكوراً .

في كل هذا كان يقوم بين فريق الوسط من الأمة الوسطية الأعمال هذه الحركة المتنابذة الأطراف شبيه مثلاً محسناً من فريق الآخر طريق البقاء وتراثه التجديد لا أعرف به السوب الذي يستحق في تقدم الأمة في أفكارها وآرائها وأن ما يلقاه القائلون بالتجديد من خصومهم الأعداء الألداء المتكلمين لا بد من وقوعه ما دامت الأمة جاهلة حسنه وما دام من كتب لهم العيش أشلاء لا يزال يتجرع من الصولة والحوادث بنتائج لا يقل ربع نصف .

وبعد فلا بدع إذا بدي الأستاذ المنفلوطي صاحب هذا الكتاب لأول وهلة بما فيه من معارضيه من بذاءة اللسان والتسفيه في القول بالمخالف عنه لانها سنة في المجددين منذ القديم . فهذا غستاف فلوبير الكاتب الفرنسوي المعروف كان يحتقره معاصروه ويهزؤون بكتاباته وآرائه حتى يحمله ذلك على البكاء كالأطفال الصغار ويشرع يجاوب زملاءه زولا وكونكور ودوده وهو يبكي أسفاً لم تنل هذه المؤلفات الاستحسان الذي أمّله » فتأخذهم رعشة الكآبة والحزن فيبكون جميعاً — هذا الرجل الذي كان في عصره بهذه المثابة ولم يكتب لآثاره أن يرتاح لها الرأي العام أصبح القوم اليوم يعبدونها ويمجدونها ويسبحون بحمدها .

امامي الآن هذا الكتاب انظر إلى الصفحة الاخيرة منه بعد ان كنت قرأت معظم فصوله في الصحف وكانت نظرتي اليه في المرة الثانية ومقالاته مجموعة في سفر خاص غيرها في الاولى . اذ كنت ألاحظه واما أعلق عليه في مفكرتي بعض ما أخذت به منه ورأيته مما يجدر ان ينبه عليه مثلي على اني قرأت ما كتب عليه في الجرائد والمجلات فاذا به لا يبل غليلاً ولا يشفي قليلاً مما دل على ان باب « التقريظ والانتقاد » لم يفتح عندنا كل الفتح ونخشى ان يطول علينا الامد ان يصيبه ما اصاب باب « الاجتهاد » .

وقد افردت لكل من « أسلوبه » و « موضوعه » و « آرائه » و « لغته » و « وصفه » بحثاً خاصاً سأتكلم في كل واحد منها على حدة وانتهي بالاشارة الى شذرة من « روح المؤلف » ، وذلك بقدر ما تمكنني فرصة من القيام به وهدفي في ذلك البحث والنظر .

ا

أسلوبه

مما كتبه « المنفلوطي » في مؤلفه هذا قصص جمة كانت هي الباعثة لي على الخوض في غمار هذا الموضوع وقادني الفكر اليه في هذا البحث نظري الى قصصه أريد ان أبين طريقته في الانشاء وأحاول ان اردها الى مذهب خاص مما انشأه أدباء الأوربية في تاريخ آدابهم . اذ لكل كتاب ادبي قصصي اسلوب خاص ينهج فيه مؤلفه المنهج الذي يراه انه امتع وانفع ووافق لجمهور الطالب او يتبع في ذلك سنة الارتقاء :

قامت في اوربا مذاهب شتى في الادب القصصي منذ القرن السابع عشر حتى اليوم وكلها سلكت من سلسلة تاريخ الآداب عند الاوربيين . فمن هذه المذاهب مذهب

---

(1) معرب عن الفصول من كتاب « الصالون والمقالات »

يجاريهم . ان الثلة من الساقة عن اصلاح الاسلوب [illegible] آلا . عند حلول المصائب والنوائب . [illegible] يضمنون [illegible] الحكمة في كتبهم بدعوى انهم تأثرتهم بمثل شعور [illegible] القراء . ولا دون [illegible] النزعة الشخصية تتمثل في تضاعيف كتابه فاذا يخلق اشخاص الوقائع [illegible] شعوره الذاتي ويشوبه [illegible] العناية [illegible] العواطف في ابطال الرواية ظهوراً . من اجل هذا [illegible] ما استفاد التاريخ وعلم الاجتماع من امثال هذه الروايات .

وما يحملهم على ذلك الا تشبههم [illegible] القراء . [illegible] من عقول العامة لان هؤلاء اعتادوا ان يبسطوا [illegible] في الحقائق المادية والهم يتذمرون من مطالعة صفحات حياة الانسان كما هي . ولما كان [illegible] في الروايات ان يجعلوا الوقائع والاشخاص في [illegible] « Idéal » [illegible] كان [illegible] [illegible] الادب [illegible] الاخلاق في الروايات وكانت القصص [illegible] والاشعار [illegible] بالشعور ليس [illegible] . [illegible] هذا المذهب

(Idéalisme المذهب الفكري)

وهناك مذهب آخر [illegible] يدعى « Romantisme — مذهب الخياليين » وهو كما عرفه [illegible] عبارة عن « [illegible] الادبية [illegible] معتمدات الاهواء والثورات [illegible] في الحلقة الحاضرة [illegible] في نفوسهم سروراً وتفاؤلاً » [illegible] كما يقول [illegible] « انه لا يعرف الطبع سوى ذوقه وبهوسه [illegible] الجيل « كي [illegible] ان روح الرومانتيزم الحقيقية هو [illegible] ان يكون [illegible] في صدره موحدة ونوراً » [illegible] . وهذا المذهب [illegible] الفكرة [illegible] الاستسلام وليس في هذا المذهب مشاهدة ولا تحقيق ولا [illegible] ليس له مقياس [illegible] ولا منطق لان هؤلاء كلها امور [illegible] — هذا هو اصل الرومانتيزم .

ومن مذاهب الروايات [illegible] المذهب التاريخي الذي [illegible] يضعون بوضعه في الروايات التاريخية [illegible] في التاريخ [illegible] من [illegible] والاشخاص بحيث كانوا يخلطون [illegible] من الافكار [illegible] وحادثات . والتاريخ عندهم [illegible] اسكندر [illegible] الواسع « ليس لديهم من فكرة سوى انهم يعملون على ادخال البشر والارباح في نفس القارئ . بيد ان [illegible]

الاسلوب ورقة الوصف عندهم مكاناً من الغاية . وامثل نموذج لهذه المؤلفات التاريخية واحفلها هو كتاب « خمسة آذار » لالفريد دوفيني و « نوتردام دوباريس » لفيكتور هوغو .

وقد نشأ مذهب جديد دعي بمذهب الطبيعيين « Naturalisme » ومن اخص ميزاته هو ان زعماءه وسعوا دائرة القصص واخذوا يبحثون عن ملجأ تلوذ به اشخاص القصة خشية ان تخوض عباب الوقائع الغريبة التي يتعملها بعض الكتاب لتكون النتيجة اما الانتحار او الزواج واصحاب هذا المذهب ينظرون الى ذلك الضرب من القصص نظرهم الى الالعوبة يتلهى بها الفتيان والفتيات . والذي يعنون به اليوم هو صفحات النتيج فشأن القصة عندهم نسبة عالية من صحيح الوصف وحديث الوقائع .

ومن انصار هذا المذهب من القصصيين ممن جردوا الروايات من شوائب الكذب والاختلاق بعد فلوبير اميل زولا وموباسان الكاتبان الفرنسويان المعروفان ونشأ عن هذا مذهب آخر دعي « مذهب Impressionnisme اي امبرسيونيزم » . والفرق بين هذا ومذهب الطبيعيين هو ان زعماء المذهب الاول يعنون بلاعج العواطف وآثار ماولدته فيهم الحقيقة وهم يرون ان « الحقيقة واحدة » . اما انصار الثاني فانهم مستقلون عن الذاتية وما همهم الا تتبع الحقيقة كما هي على حين يترجم زعماء الامبرسيونيزم الطبيعة اكثر من ان يعيدوها مرة اخرى . ومن هنا كان ولا جرم مذهب الطبيعيين امتن وارصن وقصصهم اعظم مهابة ووقاراً .

وهناك مذهب جديد وضعه الكاتب الفرنسوي الشهير « بالزاك » وانضوى تحت لوائه كبار المتأدبين ممن اثروا اثراً محموداً في نهضة الآداب الفرنسوية الا وهو « مذهب الحقيقيين « Réalisme » وقد اتم وضعه فلوبر بمصنف له سماه « مدام بوفاري » وقد سبق هذا الرجل بالزاك وستاندال ومريمي فاذاقوا الفرنسويين بمصنفاتهم طعم الحقيقة ولكنهم لم يكسروا سورة شبوبهم بأسرها ولم يتعد تأثيرهم في نفوس القراء ايقاظ الحقيقة فيهم . ولكن مصنف « مدام بوفاري » علم الناس اجمع ماهو مذهب الحقيقيين بما ترى في تضاعيفه من وصف الحياة بما فيها من اضطراب وغموض باجلى تعبير واوضح بيان .

وطريقة « بالزاك » في قصصه هو انه يبدأ اولاً في تعريف الاشخاص ويأتي على

تصوير المكان الذي فيه يعيشون والبيئة (المحيط) التي في ارجائها يجولون وما يحوي المكان من اثاث ورياش ثم يذكر الخلق واجسامهم وما يلبسون ويكتسون من اردية حتى انه يرسم خطوط الجبهة واخيراً ينفخ فيهم من روح القصة فينطقون ويتحركون .

هذه هي « الطريقة العلمية » التي يجري عليها العلماء والعقلاء من كتاب اوروبا في التاريخ والادب ولا يوجد ممن يكتبون سواهم ممن يمثلون الحقيقة للقراء عارية بالطبع والطبع مظاهرها غير مبالين ولا وجلين . وثمة من المذاهب ما كنت اود ان آتي على ذكره هنا لولا اني توخيت في هذه « النظرة » الايجاز مثل المذهب الرمزي (سامبوليزم) والمذهب الفني (كلاسيسيزم) وغيره من المذاهب .

وبعد ان القيت بين يدي القارئ هذه المقدمة التي ارجو ان تكون اضاءة فيها بطرف من مذاهب الكتاب الآن استطيع ان احكم ان بعض اصول « النظرات » القصصية واضعها في المحل الذي يجب ان تحل فيه بين هذه المذاهب كلها .

لا جرم ان الناظر في هذا السفر والمطلع على هذه المذاهب يعلم ان المنفلوطي جرى في كتابه مجرى الخياليين وانه يجمع بين هؤلاء . ومذهب الفكريين في الاحايين . فهذه مقالته « الكأس الاولى »[1] و« عبرة الدهر »[2] يتجلى فيها الخيال باحفل مظاهره . فلقد سمع صوت المؤلف في الاولى عند قوله : « وما كان له وهو بين الخ . . . » وكذلك عند قوله فيها : « والدهر المتكرر لا يلفت النظر ولا يشغل الذهن » . وقد ورد على لسان الشخص المريض الشاخص ببصره الى السماء — ذلك الرجل الذي لم يبق منه الا اهاب ترى — عبثاً لا قدرة لاعضاء الاجسام على ايراده في مثل تلك الحال وقصد المنفلوطي ان يبين سبب الادمان على الخمر فجعل ذلك بلسان المريض ذاكراً ان كل كأس شربها جزء من شبه الكأس الاولى وان ليس الباعث على ذلك غير قصور عقله عن ادراك خداع الخلطاء وبين « ان الجوقة الكاذبين خدعوه عن نفسه حتى استكملوا انتقاصه اليهم الشبيبة التي لاتتم الا بنزاع الكؤوس وضوضاء الاجتماع » ثم بدا المنفلوطي واظهر شخصيته فقال : « ولو علمت كيف خدعوه وزينوا له الخروج عن طبعه ومألوفه واي دريئة تدرجوا بها الى ذلك لعلمت انه انتهى الى النهاية من البلاهة وضعيف الى الغاية من الضعف » وقد حكم عليه بالبلاهة ولم يذكر عن تربيته

---

[1] ص — ٥ [2] ص ٢٥

مايفهم منه انه على غرارة وسذاجة بل الذي تبين انه كان صديق المؤلف وارتباطه بالصداقة يقضي ان يكون فيما احسب الى غير ماذكر .

وفي مقالة عبرة الدهر دليل آخر عَلَى مذهب الخياليين وهو ذكره (صاحب القصر) بانه فاسد الاخلاق واغفاله البحث في ان يذكر عن نشأته الاولى شيئاً تتبين منه ان بين جنبيه نفساً ملؤها الرذائل . وكان عليه ان يصف (بلالا) الخادم الذي جعله في موقف الحكم الحكيم وانه من المبادىء العالية ماهو كيت وكيت وان يذكر طرفاً من حنق زوجته ونأيها الى زوجها الذي كان يقضي الليالي الطوال وهو يداعب ازواج المحارم بمثل ما يداعب غيره زوجته . وهذا نقص كبير وخطأ فادح في الاسلوب . ولكن المنفلوطي كما اسلفنا لم يهتم في الحقيقة اهتمامه الزائد في ان تكون قصته جامعة لجمال الاسلوب الخيالي الذي ضمنه حكماً بالغة وعواطف شريفة بدون ان يتبين المواقف التي يقف فيها الرجل الحر الفقير موقف المرشد الحكيم .

ومما يستدل فيه ايضاً عَلَى تنكبه جانب الحقيقة سؤال (صاحب القصر) (بلالاً) في اي ساعة نحن من ساعات الليل فاجابه في الساعة الاولى ثم ذكر المؤلف ان الخادم لم يصل من الحديث الى حد معين « حتى نصل خضاب الليل واشتعل المبيض في مسوده » مع ان ذلك الحديث يذكر في بضع دقائق ليس الا . . .

هذا نموذج مما ذكره المنفلوطي من الفصول القصصية ومن تشريح اسلوبه يعلم انه احتذى مثال (الخياليين) في انشائه . وكل من تتبع الحركة الادبية في المشرق يعلم انها مسوقة نحو الكمال بحكم ناموس « النشوء والارتقاء » وان كتاب المنفلوطي هذا هي احدى الحلقات من سلاسل الآداب التي لا يزال البحث حولها .

وما نودع باستقباله وماضمنه من اسلوب جديد وتشبيه رائق واستعارات محكمة ذلك الاسلوب الخيالي المحض في كتاب « كليلة ودمنة » وهو من تاريخ آداب المشرق بمثابة « لافونتين » من آداب الغرب كما ان عيرنا ودع باعرابه عبدالله بن المقفع كتاب « الف ليلة وليلة » واقاصيص « عنترة » الممزوجة بالابطال الخياليين ما كان بها وبامثالها بدء نمو النفثة الادبية القصصية كما كانت « الالياذة » باكورة نهضة الغرب في الآداب وفاتحة رقيهم وتقدمهم .

وجديرٌ بكبار ادبائنا العاملين وهم يرون الغرب كل يوم يخطو خطوات واسعة نحو

الحقائق ان يقتفوا آثار مذهب الحقيقيين باطراحهم مذهب الخياليين جانباً وان يعملوا الفكر والتنقيب فيستبدلوا الاحياء بالاموات ويستعيضوا بالارواح عن الاشباح وكفى .

٣

موضوعه

قسم المنفلوطي كتابه الى عشرة فصول : (١) الرسائل العلمية (٢) الرسائل الادبية (٣) الرسائل الاخلاقية (٤) الرسائل الاجتماعية (٥) الرسائل السياسية (٦) الرسائل الدينية (٧) الشعريات (٨) التسليات (٩) الروايات (١٠) المراسلات . ويجب ان نذكر هنا قبل كل شيء ان المنفلوطي لم يحسن تبويب الكتاب فقد ذكر مقالة « اقصد قومك » في الرسائل « الاخلاقية » وكان الاولى ان تكون في « الرسائل الاجتماعية » كما انه ذكر مقالة « مدرسة الفقراء » [1] وفي « سبيل الاحسان » [2] في الثانية في حين يقتضي ان تكون من موضوعات الاولى . وانت اذا اردت ان تزن هذا الكتاب المنزلة الخليق بها من حيث علاقته بالعلم والاجتماع والسياسة والاخلاق رأيته يضرب في الاخير منها بسهم وافر ويجري منه في كل عرق .

نقرأ روح الاخلاق في مقالة الكأس الاولى و« اين الفضيلة » و« الغني والفقير » و« عبرة الدهر » و« مدينة السعادة » و« الرحمة » و« الصدق والكذب » و« الانصاف » ونراه ايضاً يتعرض للموضوعات الاجتماعية فلا يدع البحث فيها من عامة اطرافها على حين تستدعي درساً يطلب المرء فيه قراره ليستنبط الناظر فيها من حقيقة ناصعة او علم جم او فكر جديد .

يدلك على هذا بحثه عن المجرم في مقالة « اقصد قومك » [3] فانا لا ننكر عليه انه ذكر فيه ما يفهم منه انه يحمل الذنب على المجتمع البشري وعلى التربية الاولى وعلى القانون والى غير ذلك شأن كثيرين ممن قاموا اليوم في اوربا يحامون عن المجرمين ويعدونهم كالبائسين المستحقين الرحمة ويطلبون تعديل القانون الجائر لتخفيف ما ينزل بهم من الويل والثبور . ولو كان المنفلوطي [illegible] كتاب [illegible] في هذا البحث وقرأ ما كتبه الاطباء في هذه المسألة لتمت الفائدة .

ثبت مؤخراً بعد الفحص الطبي [4] ان للجناة من نقص ملكاتهم المادية والادبية استعداداً لما يقترفونه من الجنايات منذ زمن مديد . وقد فحص « بنديكت » احد

---

(١) ص — ٢٦٥ (٢) ص — ٢٩٢ (٣) ص — ٧٦ (٤) المقتطف [illegible] .

مشهوري اطباء فرنسا ادمغة كثيرين ممن يقترفون الجنايات الكبرى فوجدها بأسرها مؤوفة غير تامة التركيب ، وهذا الرجل يعد الجنون والجناية صنوان . ويرى رأيه هذا الدكتور « بوردي » الفرنسوي وقد بحث في ادمغة ستة وثلاثين جانياً حكم عليهم بالاعدام فرأى الناحية الجبهية مصابة والناحية الجدارية واسعة جداً . وهذا يدل على نقص القوة العاقلة والشعور والميل الى الخنق والنزق . وقد نظر « غاروفالو » احد مشاهير علماء الجزاء في ايطاليا في الجناة فلم يجد واحداً منهم خلواً من امارات مادية وادبية تحكي الانسان الاول .

وماظهر من الحقائق الجديدة من امثال هذا الاستقراء والاستقصاء هو موضوع الرأي العام في اوربا في شأن تنظيم الجزاء حتى نشأ عن هذه التجارب الطبية علم جديد يسمى « علم الجرائم البشرية — انتروبولوجي كريمنل » وكان للايطاليين اليد الطولى في خدمة هذا الفن الجليل

نال المنفلوطي من المدنية الغربية في كلامه عليها نيلاً لا ارضاه ولا يرضاه له كل من درسها حق دراستها وبحث فيها بحث العالم المتجرد عن المؤثرات دينية كانت او قومية لا بحث خطيب او اديب او شاعر او واعظ مرشد داع الى وطنية او اخلاق .

وورد في قوله هذا كلام فئة من حملة الاقلام ممن لهم من اخلاقهم عصبية قومية او نعرة شرقية وسواء عندي كان قولهم هذا بدافع الوطنية او الدعوة الى احياء آثار مجد لنا دثرت معالمه او الاحتفاظ بما ابقى لنا آباؤنا من تراث عاداتنا خشية ان يخالطها الضعف او تمازجها لوثة من لوثات الفساد فينشأ ناشئتهم وقد انحل من وطنيته كما انحل من دينه وداخل الفساد اخلاقه كما اصاب عاداته ومنازعه

واني اشاركه في كل ما جاء في تلك المقالة الا في قوله : « ان دعوناهم الى الحضارة فلا نضرب لهم مثلاً بحضارة بغداد وقرطبة وثينة وفينيقية لا باريس ورومة وسويسرا ونيويورك ، وان دعوناهم الى مكرمة فلنسرد عليهم آيات الكتب المنزلة واقوال انبياء الشرق وحكمائه لا آيات روسو وبيكون ونيوتون وسبنسر ، وان دعوناهم الى حرب ففي تاريخ خالد بن الوليد وسعد ابن ابي وقاص وموسى بن نصير وصلاح الدين ما يغنينا عن تاريخ نابوليون وولنجتون والمنطون ونلسون والمارشال (بلوخر) ، وفي وقائع القادسية وافريقية والحروب الصليبية ما يغنينا عن وقائع واترلو وترافلغار واوسترليتز والسبعين »

هذا ما كتبه المنفلوطي الى ابناء القرن العشرين من المشارقة وهو يريد ان يربوا

تريد مدنية عالية يصدون بها غارات الاجانب التي تشن عليهم من كل صوب واوب وهذا هو السلاح الذي يحمل الشبيبة المصرية على ان يتسلحوا به ليقاتلوا اعداء الوطنية ويخرجوا من ديارهم من ابتزوا اموالهم واعتدوا على اسرهم وكل يوم يرشقونهم بسهام التعصب والطيش من الحكمة ان يدعو القائم بالاصلاح الى قومية او وطنية لكن بدون ان يزدري مدنية الامم الاخرى الناهضة ويعمل على الحط منها وعوائد بنيها وطدوا دعائم استقلالهم ورفعوا منار مجدهم وسؤددهم

وما ادري كيف تقوم لنا نحن معشر المشارقة قائمة اذا اقتصرنا على ما اورثناه من المناحي والمنازع ووقفنا على الاخذ بما قاله لنا آباؤنا الاولون من الآثار فقط بدون ان نمعن النظر في آداب رجال الغرب واخلاقهم وعاداتهم وتاريخهم وبالجملة نقف على سر تقدمهم ولا اعلم لاي غرض نعنى بارسال البعثات العلمية الى البلاد الاوربية ونتادى على رؤوس الاشهاد ان هذا هو الذي يحقق لنا الامل في المستقبل اذا لم يكن المقصد منه درس تاريخ نابوليون ووشنطون وولنطون ونلسون والبحر ووقائع واترلو وترافلغار واوسترليتز واليمين او انتيل حتى نروى من آداب روسو وباكون وزولا والفريد دي موسه او نستطلع اسرار الفلسفة ديكارت وباكون ونيوتن وسبنسر وغيرهم .

ويجب ان لايغرب عن الاذهان ان ما توفر للدول المغاربة من الاسباب والوسائل في بيئتهم وبين بني جنسهم وما كان يجول في خواطرهم من الاماني التي كانت المصالح تدفعها للانبعاث الى حيز الوجود غير ما توفر للدول المشارقة من العرب وغيرهم على اقتحام غمرات الردى في سبيل الدفاع عن الحق وهذا ما يدعو لاختلال التوازن في المضاء السياسي في الفريقين بما يتذرع به من الحيل الحربية والدسائس في مثل هذه الاحوال النظر في كتاب الغيب وقراءة مستقبل الامم فيه مما ينجم عنه ما نراه من الاختلاف في نتائج الحروب والمعارك نصراً كان او خذلاناً

وسواء صحت نظرية من زعموا ان من دواعي سقوط الدولة العربية جهل الامة بتاريخ اليونان والرومان او لم تصح فان فيها حقيقة لا اخالها تخفى على امثال الاستاذ المنفلوطي . واذا اتخذنا هذه النظرية مثلا جاز لنا ان نتشاءم ساخطين بالاخفاق والحبوط ونحكم على حياتنا الاجتماعية والسياسية بالانحلال والاضمحلال في مستقبل الايام اذ قادنا الجهل الى ان نحرم انفسنا الوقوف على سر استبحار عمرانهم وانبساط ظلال مدنيتهم في طول البلاد وعرضها فنحرم من الاستمتاع بعلومهم وآدابهم .

ولو كان قوله هذا درساً يلقيه على صغار العقول من الطلبة الاطفال ليطبعهم بطابع حب الوطن وينشأوا وهم يفادون في سبيله بالنفس والنفيس لما أُخذ بقدر ما يؤاخذ وهو في موقف ودع فيه — كما قال عن نفسه — « الجِد والشعر وداع من يعلم ان الامر اعظم شأناً واجل خطراً من ان يعبث به العابث بمثل هذه الطرائف التي هي بالمنزل الادنى منها بالجد والتي انما يلهو بها الكاتب في مواطن فراغه ولهوه لا في مواطن جده وعمله »

الا فليعلم الكاتب ان في الغربيين من العادات ما هو خليق بنا نحن الشرقيين ان نغتبط به ونأخذ بالقائم الرائع منه والرجاء ان لا يظن بأننا بما نكتبه الآن نخدع الامة عن نفسها او نفسد عليها شرقيتها بتزييننا لها هذه المدنية تزييناً يجمع الى استقلالها النفسي استقلالها الشعبي فأشد وايم الحق ما نكون محتفظين بعاداتنا العربية الشرقية وآدابنا ولكن ما نراه من تيار المدنية الغربية يريدنا على مجاراتها شئنا ام ابينا فان لم نعد لها عدتها ولم نسر معها جنباً الى جنب دهرتنا وربما اوردتنا موارد الهلكة غير حافلة بنا ولا آسفة علينا .

ومما انكره عليه ايضاً تعرضه في مقالة الحجاب [1] لولي عقله واستاذه رجل الاسلام الشيخ محمد عبده ورجل المرأة قاسم بك امين . ولو اقتصر على ذكر (المحسن) وذلك الرجل الذي كان في حياته يتحذق امثاله بما يسموه (الحيل الشرعية) وذاك (القطب) الذي كان اكبر تاجر من تجار الدين — لو اقتصر على هؤلاء لكان احسن صنعاً . وجل ما آخذ به الاول هو انه « فاجأ جهلة المسلمين بما لا يفهمون من المبادئ الدينية الصحيحة والاغراض الشريفة فأرادوا غير المراد وفهموا غير ما فهم . وهذا ما دعا الى الحادهم (!) ومروقهم من الدين (!) بعد ان كانوا محرفين وانه اول لهم بعض آيات الكتاب فاتخذوا التأويل قاعدة حتى اولوا الملائكة والشيطان والجنة وبين لهم حكم العبادات واسرارها وسفه لهم رأيهم في الاخذ بقشورها دون لبابها فتركوها وانه قال لهم ان الولي اله بالمال واتقياه له حتى انكروا الالوهية حقها وباطلها »

« يتبع »

دمشق : صلاح الدين القاسمي

---

[1] ص — ١٠٦